مِصْرُ في نتاجِ شَوْقِي ضَيْف

د.عوض الغباري(*)

-١-

قدّمَ شوقي ضيف كتابًا موسوعيًا فريدًا إلى المكتبة العربية، تناول فيه الأدب المصري في تطوره عبر العصور التاريخية من الفتح العربي في السنة العشرين للهجرة (٦٤٠م) إلى نهاية العصر العثماني، وولاية محمّد علي حكم مصر سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥م. وقد اختصّ شوقي ضيف مصر بهذا الكتاب القيّم الذي يمثّل الحلقة السادسة من حلقات موسوعته العلمية الرائدة التي ألّفها في عشرة أجزاء، تناول فيها تاريخ الأدب العربي بالدراسة المستفيضة من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث.

كانت هذه الموسوعة نتاجًا لثقافته الواسعة، ومنهجه العلمي الرصين، وفكره العلمي المستنير، ورحلته المبحرة في أعماق الثقافة العربية والحضارة الإسلامية؛ مما مكّنه من وضع نظرية في دراسة الأدب العربي تناولها الباحثون في كتب ودراسات ومقالات كثيرة، أكّدت أنه صاحبُ رؤية نقديّة واضحة لمراحل الأدب العربي في تطوّره الفني من القديم إلى الحديث.

أمّا فيما يتعلّق بمصر فقد انتهج شوقي ضيف نهجًا علميًا قويمًا في دراسة تاريخها الأدبي، ولم تحل غيرته الوطنية الصادقة على مقدّرات مصر: تاريخًا وثقافةً وحضارةً وعطاءً وإسهامًا في رقي المجتمع الإنساني منذ أقدم العصور - دون هذا الالتزام المنهجي العلمي الموضوعي الدقيق في تناول القضايا الخلافيّة حول شخصية مصر الأدبية.

كان شوقي ضيف على حقّ عندما خالف مؤرّخي الأدب العربي؛ إذ جعل دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ نهايةً للعصر العباسي وبدايةً لعصر أطلق عليه (عصر الدول والإمارات). وقد امتدَّ هذا العصر نحو ثلاثة قرون إلى سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ، وقد رأى شوقي ضيف أنَّ تَسْمية هذه القرون الثلاثة باسم العصر العباسي الثاني خطأٌ واضحٌ؛ لأنَّ الخلافة العباسية خلال هذا العصر كانت ضعيفةً لم تبسط نفوذها على الدولة العربية التي أصبحت في عصر جديد تقطّعت فيه دولاً وإمارات شتّى.

(*) أستاذ الأدب المصري المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

أضاف شوقي ضيف إلى عصر الدول والإمارات ثلاثة قرون أخرى بعد غزو المغول لبغداد، أطلق عليها مؤرخو الأدب العربي (العصر المغولي)، ورآها شوقي ضيف استمرارًا لعصر الدول والإمارات من المنطلق نفسه؛ إذ ظل العالمُ العربي حينذاك موزعًا بين دول وإمارات متعددة غير خاضعة لسلطان المغول إلى أنْ خيّمَ عليه ظلامُ العصر العثماني[1].

ويكمن تفرّدُ شوقي ضيف في قدرته على الإحاطة بتطور الأدب المصري عبر هذه الرحلة التاريخية الطويلة لمصر في عصورها الإسلامية، بتاريخها العريق الحافل بالعطاء الحضاري والثقافي والعلمي على امتداد حوالي اثني عشر قرنا؛ منذ الفتح العربي الإسلامي لمصر في السنة العشرين للهجرة (٦٤٠م) على يد عمرو بن العاص في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى نهاية العصر العثماني، وتولي محمد علي حُكْمَ مصر سنة ١٨٠٥م بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م، مرورًا بعصر الولاة الذي أصبحت مصر فيه ولايةً تابعةً للخلافة في عصور الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والدولة العباسية، إلى أن أسّسَ أحمد بن طولون الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ/٨٦٨م، وهي أوّلُ دولة مستقلّة عن الخلافة العباسية، ثم الدولة الإخشيدية التي قامت على يد كافور الإخشيدي سنة ٣٢٣ هـ/٩٣٤م.

وقد قامت الدولة الفاطمية في مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، ومن هذا التاريخ تأسّست القاهرةُ وتأسّس الجامعُ الأزهر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي مؤسّس الدولة الفاطمية الشيعية التي قامت على أنقاض الدولة العباسية.

ثم ردَّ صلاح الدين الأيوبي مصر - مرة أخرى - إلى الخلافة العباسية شكليًا، وتولى مقاليد الحكم، وأسّسَ الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١م، وحقّقَ نصرَه العظيم على الصليبيين في حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

وفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م قامت الدولةُ المملوكيّةُ التي حكمت مصر إلى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦م، ومن هذا التاريخ قامت الدولة العثمانية بعد أن حقّق الظاهر بيبرس مؤسّس الدولة المملوكية نصرًا مؤزرًا على التتار في عين جالوت بقيادة قطز سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م.

---

(١) راجع: شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (مصر ـ الشام). القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤. ص٥ـ ٦.

-٢-

وقد بنى شوقي ضيف كل كتاب رائد من كُتبه على أساس منهجي جديد، منطلقًا من ثوابت علميّة أصيلة، أهمُّها - فيما يتعلق بهذا الكتاب - أنَّ الأدبَ العربي في عصر الدول والإمارات يدل على التواصل الثقافي والعلمي والوجداني بين الأقاليم العربية المختلفة مع طول الفترة التاريخية، وتعدّد الدول والإمارات مما كان يمكن أن يؤدي إلى الاختلاف والتنافر، ولكن ذلك لم يحدث بدليل أنَّ الأندلسَ ابتكرت الموشحات، ومصر وضعت عروضها على يد ابن سناء الملك في كتابه "دار الطراز"، وقد كانت أهميتُه العظيمة في وضع عروض الموشح كأهمية الخليل بن أحمد في وضع عروض الشعر العربي.

هذا مثالٌ فقط تؤكده شواهدُ لا حصر لها معناها "أنَّ هذا العصر الطويل رغم أنه توزّع بين دول وإمارات منفصلة سياسيًّا كانت تربط بين بلدانه وحدةٌ فكريّةٌ وشعوريةٌ وروحيةٌ"[(١)].

وقد وضع شوقي ضيف نتاجَ مصر الأدبي والعلمي في سياقه العربي، ومنظومته الحضارية الإسلامية، مركزًا على ما تميّزت به من شخصية وسمت أدباءها وشعراءها وعلماءها.

وامتدَّ العمقُ الثقافي والأدبي والعلمي لمصر في رحلة حافلة بتبادل التأثير والتأثر مع الثقافة العربية الإسلامية عامةً في عطاء واسع للثقافة التي تستوعب الأُسس الحضارية العربية الإسلامية، وقامت على أساسها نهضةٌ أدبيّةٌ وعلميّةٌ وفكريّةٌ واسعةٌ في مصر على مرّ عصورها، أخذت على عاتقها استمرار مسيرة الحضارة العربية خاصة بعد أنْ حلّت مصرُ محل بغداد بعد سقوطها، وأصبحت مركزَ الثقافة العربيّة ومحط رحالِ أعلامِ العربِ الذين قصدوها طلبًا للعلوم والفنون والآداب، وإسهامًا - في الوقت نفسه - في النشاط العلمي الذي حفلت به مصر في هذه الظروف التاريخية التي بوّأتها مكانة رفيعة بين الأمم. وقد تحقّقت بهذه الحركة الثقافية الشامخة بمصر الوسائلُ والغاياتُ التي أدّت إلى تحقيقِ الأصالة والجدة في العلوم والفنون والآداب، في مواكبةٍ لدور مصر التاريخي الحاسم في الانتصار المجيد على الصليبيين في (حطين) على يد صلاح الدين، وما أدى إليه

(١) انظر: عصر الدول والإمارات - مصر، ص ٧، وراجع ص ٦.

انتصار (عين جالوت) والقضاء على التتار على يد الظاهر بيبرس من قيادة مصر للدولة العربية الإسلامية؛ إذ أصبحت قطبَ القوّة والحضارة والتوجيه فيها على حد تعبير جمال حمدان[١] .

وقد تناول شوقي ضيف الحركة الأدبية والعلمية الواسعة في مصر على مر العصور، ورسَم خريطةً علميّة دقيقة لهذه الحركة التي أبرز دور أعلامها في علوم الأوائل والجغرافيا، وفي علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والكلام والتاريخ. كما وضع أيدينا على تطور الأدب المصري: شعره ونثره على يد أعلامه في الشعر الدوري والرباعيات والموشحات، وفي المديح، والمراثي والشكوى، وفي الدعوة الإسماعيلية، وفي الغزل، والفخر والهجاء، ووصف الطبيعة، وفي الزهد والتصوف، والمدائح النبوية، وفي الفكاهة وما يتصل بها من شعر شعبي. كذلك تناول النثرَ وازدهاره ونهوضه في الأدب المصري في دراسة ضافية لأهمّ أعلامه وفنونه في الرسائل والمقامات والمواعظ والابتهالات، وفي كتب النوادر والسير والقصص الشعبية.

وقد أشادَ شوقي ضيف بهذا الثراء الأدبي والعلمي المصري في عصر الدول والإمارات، كما أشاد بالروح العلميّة المتقدة في هذا العصر، ووضع الأمور في نصابها العلمي الصحيح؛ إذ كان هذا العصر - ولا يزال - محل اتهامات غير قائمة على أسس علميّة موضوعية جادة. تزعم أنه عصرُ تخلّف وانحطاط، مما يجعلنا نؤكد القيمةَ العظيمةَ لشوقي ضيف في إنصافه لهذا التراث المفترى عليه.

إنَّ دَوْرَ مصر العلمي كما يقرر شوقي ضيف "جعل المغرب منذ القرن الثاني الهجري يحملُ عنها رواية ورش للذكر الحكيم إلى اليوم، وبالمثل يحملُ عنها مذهبَ مالك في الفقه، ويحمل أبناؤها عن الشافعي مذهبَه الفقهي وينشرونه في الحجاز والمشرق جميعه، وتكتب السيرة النبوية الزكيّة وتشيعها في العالم العربي، وتُنجب ذا النون مؤسّس التصوف الإسلامي"[٢] .

وبكتابه الموسوعي هذا عن مصر يضعُنا شوقي ضيف في قلب هذا التاريخ الحضاري الفاعل لمصر بشخصيتها المتميزة. إنَّ طبيعةَ العلماء والمفكرين والأدباء المصريين معبّرةٌ عن شخصيّتهم

(١) انظر: شخصية مصر (دراسة في عبقرية المكان). القاهرة: عالم الكتاب.ج٢/٤٤٣.
(٢) انظر: مصر، ص٧.

المصرية، وعن أثرهم الهام على مرّ العصور في الثقافة العربية، بدايةً من العصر الطولوني الذي شهد اهتمام أحمد بن طولون بالعلماء والأدباء، ومرورًا بالعصور التالية التي أصبحت مصرُ فيها عاصمة الثقافة العربية، وقد تضخمت مكتباتها في العصر الفاطمي، وكان لها أثرٌ كبير في ازدهار الحركة العلمية في مصر والعالم العربي والإسلامي، كما كان العصر المملوكي عصر التأليف الموسوعي العظيم.

وقدْ طاف شوقي ضيف بنا في متون المصادر الأصيلة التي وضعت أيدينا على الحركة الأدبيّة المصرية، مشيرًا إلى الصولي الذي ألّف كتابًا عن شعراء مصر منذ مراحلها التاريخية المبكّرة في العصر الطولوني، وأشار إلى عمق الوشائج التي تربط ازدهار الأدب بمصر بازدهار العلوم، وأثر ذلك في نهضة العلوم والفنون والآداب في الأقطار العربية الأخرى التي تأثرت بمصر. ويتّضح ذلك في تأليف ابن الداية كتابًا عن أطبّاء مصر، "ويؤلف ابنُ يونس الصدفي كتابًا عن علمائها، وعنهم يحمل الأندلسيون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري مُعْجمَ "العين" للخليل بن أحمد في اللغة، و"كتاب سيبويه" في النحو، وأعدّ ذلك الأندلسيين مبكّرين لنهضة كبرى في الدراسات النحوية واللغوية"[١].

-٣-

ويرتبط عطاءُ مصر الحضاري والعلمي والأدبي بالدور التاريخي العظيم لها؛ ففي عصر حطين اهتمَّ بطلُها المجيد صلاح الدين بإنشاء المدارس، واهتمَّ بالعلم والعلماء، واشتهر برعايته للدراسات الدينية التي ازدهرت في عصره، وقامت حول جهاده وبطولاته في الحروب الصليبية حركةٌ أدبيّةٌ زاهرةٌ جعلت أدبَ هذا العصر هو أدب الحروب الصليبية.

وفي تعبيرٍ بالغ الدلالة على دور مصر التاريخي في استرداد صلاح الدين لبيت المقدس من براثن الصليبيين الذين عاثوا في الأرض فسادًا، ودنسوا المقدسات الإسلامية، وقتلوا وشرّدوا المسلمين ونهبوا وسلبوا ممتلكاتهم - يرجع بنا شوقي ضيف إلى أبي شامة في كتاب "الروضتين" في وصفه

(١) انظر: مصر، ص ٧ ـ ٨.

لكثرة القتلى والأسرى الصليبيين في يوم حطين بقوله: "مَنْ شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل"[١].

وقد جاء هذا النصر المبين الذي شفي قلوبَ قومٍ مؤمنين على يد قائد رأى أنَّ النصرَ قد تحقق بفضل العلم والإيمان. يقول صلاح الدين لقواده: "لا تظنّوا أني ملكتُ البلادَ بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل"، ويقول في إشارة للصوفية: "والله إنّي لا أرجو النصرَ إلا بأولئك؛ فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم".

وقد ارتبط عطاءُ مصر الأدبي بعطائها الحضاري أيضًا؛ إذ عاش جميعُ أبناء مصر في سلام آمنين في ظل التسامح الديني الذي غلب على شخصية مصر في العصور الإسلامية.

ويرجع شوقي ضيف في الحديث عن احتفالات المصريين بالأعياد الإسلامية والقبطية على حدٍّ سواء - إلى المسعودي الذي شهد عيدَ الغطّاسِ المسيحي في زمن الإخشيد، وصوّر اهتمامَ الدولةِ به تصويرًا بديعًا[٢].

أمّا توسع الدولة الفاطمية في الاحتفالات بالأعياد الإسلامية والمسيحية فهو دليلٌ آخر أكيدٌ على تمتّعِ المصريين بهذا الإخاء الذي جمع بين المسلمين والمسيحيين في مصر، وربط بينهم برباط إنساني وثيق.

وقد رجع شوقي ضيف إلى المقريزي الذي أكّد هذا المعنى بالإشارة إلى أنَّ صلاح الدين أسقط عن أهل الذمّةِ ضرائبَ كثيرةً خففت عنهم، مع حاجة الدولة إلى الأموال من أجل الإنفاق على الجيوش[٣].

كذلك رجع شوقي ضيف إلى ابن جبير ورحلته إلى مصر، وإشادته بعمرانها في عصر صلاح الدين[٤].

---

(١) انظر: مصر، ص٢٩-٣٠.
(٢) انظر: السابق، ص٤٨.
(٣) انظر: السابق، ٥٢.
(٤) انظر: السابق، نفسه.

كانت مصر منذ عصر الأيوبيين مَوْئل العروبة والإسلام على حدّ تعبير شوقي ضيف[١]، واستمرّت في عطائها الثقافي الحضاري في العصر المملوكي الذي حققت فيه مجد الانتصار على التتار، فورثت عن بغداد الخلافة العباسية، وتحقّقت على أيدي علمائها وأدبائها النهضةُ الثقافية، وكان تاريخُها في هذا العصر من أزهى عصور مصر الإسلامية إنْ لم يكن أزهاها، كما يقول شوقي ضيف[٢]. ودليلُ ذلك ازدهارُ العمران والصناعة والتّجارة ورخاء الدولة في مصر المملوكية، مما انعكس في إقبال المصريين على الاحتفال بالأعياد المختلفة، وحبّهم للغناء ومتع الحياة.

-٤-

تظلُّ الشخصيّةُ المصريةُ مبدعةً خلاّقةً في قيامها على عمق إيمان الإنسان المصري بالله، وحبّه للدين، في موازاة لحبّه للدنيا وإقباله عليها.

فالدينُ في صورته المعتدلة القويمة يمثّل رُكنًا من أركان الشخصيّة المصريّة التي لا تريم. حَكَمَ الفاطميّون مصر مدّةً تزيدُ عن قرنين من الزمان، فلم يغل المصريّون غلوّ الفاطميين في المذهب الديني؛ لاعتدال طبعهم. وقد حاول المعز بكلّ الوسائل فرْضَ المذهب الشيعي على المصريين فلم ينجح بسيفه أو بذهبه في ذلك، فالإفراطُ والغلوُّ والاتساعُ في التأويل في المذهب الفاطمي لا يستميل المصريين. مثالُ هذا الغلوّ الفاطمي: نظرية (المثل والممثول) التي اشتقّها محمد كامل حسين من مذاهبهم، وتعبّر عن زعمهم - مثلاً - أنّ للقرآن ظاهرًا ووراءَه باطنٌ لا يعلمه إلا أئمتهم، فظاهرُ القرآن مَثَلٌ، وباطنُه - في رأيهم - ممثولٌ، وجسم الإنسان مَثَلٌ ونفسُه ممثول... إلى غير ذلك مما يخالف الطبيعة المصرية التي لا تميل إلى مثل هذا التطرّف في التأويل[٣].

لا يَقبلُ المصريّون ولا يستسيغ ذوقُهم مِثْلَ قول ابن هانيء في المعز، وقد خلع عليه بعضَ أسماء الله وصفاته في قوله:

مَا شئتَ لا مَا شاءت الأَقْدارُ   فاحْكُمْ فَأَنْتَ الواحدُ القهّارُ

(١) انظر: مصر، ص٥٣.
(٢) انظر: السابق، ص٥٣.
(٣) راجع: السابق، ص ٥٦-٦٠.

ولذا خَلَصَ شوقي ضيف إلى عَدم وجود أصداء واضحة لهذا الشعر الشيعي في الأدب المصري إلا في شعر ابن هانئ، أو قلّة من الذين عكسوا العقائدَ الفاطميّة في شعرهم[١].

ودليلُ ذلك أنّ ظافرَ الحدّاد - شاعر مصر الكبير في العصر الفاطمي - اكتسبَ خصوصيّته الشعريّة من أثر حنينه إلى الإسكندرية مَوْطنَ رأسه، ليجسد في شعره خاصية من أهمّ خصائص الشخصية المصرية في ارتباطها الحميم بالوطن، على نحو ما فصّله حسين نصار في دراسته الضافية عنه. وقد انتهى شوقي ضيف إلى أنّ ظافرَ الحدّاد كان شاعرًا مصريًّا صميمًا في عذوبة وسلاسة شعره، ونفاذه إلى صور شعريّة طريفة مبتكرة جعلته أبرعَ شاعرٍ عرفتْهُ مصرُ في العصر الفاطمي - على حَدّ رأيه - مستدلاً بتفرّد ظافر في رسم هذه الصورة الشعرية لمصر، النيل والهرم:

تأمّلْ هَيْئةَ الهرمَيْنِ وانظُرْ ... وبَيْنهما أبو الهَوْلِ العَجيبْ
كعَمّاريّتين على رحيلٍ ... لمحبوبين بينهما رقيبْ
وماءُ النيلِ تحتَهُما دموعٌ ... وصَوْتُ الريحِ عندهما نَحيبْ

والأمرُ الذي يجبُ تأكيدُه أنّ هذا الشاعر الكبير لم يتعمق المذهبَ الفاطمي في نفسه، ولم تتغلغل العقائدُ الفاطميّة في شعره المصري الأصيل.

وقد أحبّ المصريون أهل البَيْت قبل الفاطميين وبعدهم، ولم يبق في وجدانهم من تاريخ الفاطميين في مصر سوى الجامع الأزهر رمزًا للدين والعلم، ومنارةً للحضارة، وامتدادًا لدور مسجد عمرو بن العاص رمزًا دينيًّا وعلميًّا شامخًا في تاريخ مصر.

وتتجلى الشخصيّة المصرية في اعتدالها الديني - كذلك - في تراثها الصوفي الباذخ، متمثلاً في فلسفة أعلامه المصريين. فذو النون المصري - مؤسّس التصوف الإسلامي - يبني مفهومَه للتصوف على الكتاب والسنة، ويؤكدُ شوقي ضيف ذلك بكثيرٍ من آراء ذي النون وأقواله التي توضّح أنه لا انفصامَ بين التصوّفِ والشريعة في فلسفته الصوفية[٢].

(١) انظر: مصر، ص ٢٣٩-٢٥١.
(٢) راجع: السابق، ص٦٢-٦٣.

أمّا ابنُ الفارض سُلطانُ العاشقين فَعَلَمٌ من أعلام التصوّف، وتائيتُه الكبرى من أهمّ قصائد الشعر الصوفي، عبّرَ فيها عن فلسفته الصوفيّة التي لا ترى التصوّفَ إلا في علاقته الصحيحة مع الشرع، ومذهبه في وحدة الشهود مفارقٌ لمذهب ابن عربي في وحدة الوجود؛ إذ لم يغلُ في تعبيره الصوفي غلوَّ ابن عربي.

وقد عرض شوقي ضيف لاتجاهات التصوف الإسلامي مقررًا أنّ التصوف الفلسفي قد اختصّ به ابن الفارض، وأنّ مصر قد انصرفت عن هذا اللون من التصوف إلى التصوف السني[1] . بل إنّ ابن الفارض في تجلياته الصوفية لم يكن إلا امتدادًا لذي النون المصري ولمفاهيمه وتعريفه للوجد الصوفي، وترتيبه لأحواله ومقاماته، وتعبيره عن الحب الإلهي؛ مما أثّر في تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران. "وكأنّ مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضلُ إليها - أيضًا - في قيامِ التصوّفِ في أركان العالم الإسلامي"[2] .

ويقومُ المذهب الصوفي لابن الفارض على الحبّ الإلهي، يقول في التائية الكبرى:

وعن مذهبي في الحُبّ مالي مذهبٌ ... وإنْ ملْتُ يومًا عنه فارقتُ ملّتي

ويعبّر عن مقاماته وأحواله مصوّرًا مقامَ الفناء في الله سبيلاً إلى مقام الاتحاد به - وهو أرفع مقامٍ يصل إليه الصوفي - وقد فاض قلبُه بالحبّ الإلهي:

فلم تهوني ما لم تكن في فانيا ... ولم تفن ما لا تُجتلى فيك صورتي

وطاحُ وُجودي في شهودي وبنت عن ... وجود شهودي ماحيًا غير مثبت

وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي ... وذاتي بذاتي إذ تجلت تجلت

ويعدُّ شوقي ضيف مثل هذا الشعر من أروع ما نظمه الصوفية في حبهم الإلهي[3]، ويدرس ابن الفارض في إطار دراسته لاتجاهات التصوف المصري وأعلام شعرائه، كابن الكيزاني من قبل

(١) راجع: مصر، ٦٧.
(٢) انظر: السابق، ٣٤٧.
(٣) انظر: السابق، ص٣٥٨.

ابن الفارض، والشعراني من بعده، وقدْ عَدّ الأخيرَ أكبرَ صوفي مصري ظَهَرَ في العصر العثماني محافظًا على الصورة الصحيحة للتصوّف، والذي حَادَ عن جادّة الدين في ذلك العصر[١].

وقد ارتبط المدح النبوي في التراث المصري بالتصوف وانتشار الطرق الصوفية، ويعد البوصيري أكبرَ شاعرٍ في المديح النبوي في الأدب العربي؛ فهو - كما يقول شوقي ضيف - أنبهُ مادحٍ للرسول، بل أنبه مادحٍ عربي له على الإطلاق[٢].

كان البوصيري من أتباع أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية الشاذلية، وقد عُدَّ من أهمّ تلاميذ أبي العباس المرسي هو وابن عطاء الله السكندري. ويحفل شعر البوصيري بالمدح النبوي الذي يدحض فيه افتراءات اليهود والنصارى على الدين الإسلامي الحنيف وعلى نبيه ﷺ، وقد أفرد - للردّ عليهم - قصيدةً طويلةً أشاد فيها بصفات الرسول ومعجزاته وجهاده في سبيل الله، سمّاها "المخرج والمردود على النصارى واليهود". تناول البوصيري في مديحه النبوي - كذلك - النورَ المحمّدي الذي يستمدُ منه الكون وجوده، واشتهر بمدحته النبوية الهمزية وقد سمّاها "أم القُرى في مدح خير الورى"، التي يقول في مطلعها:

كـيف تـرقى رقـيّك الأنبـياءُ ... يـا سمـاءً مـا طاولـتْها سمـاءُ
أنـت مِصْباحُ كُـلِ فضـلٍ فمـا تصـدُ ... ـدَرَ إلا عـن ضـوئك الأضـواءُ

أما بردةُ البوصيري فهي أروع مدائحه النبوية التي أثرت في شعراء المدح النبوي من بعده على الإطلاق.

يصف فيها الحقيقة المحمدية بقوله :

فـاق النبـيين في خَلـقٍ وفي خُلُـقٍ ... ولم يـدانوه في عـلْمٍ ولا كـرمِ
وكلّهـم مـن رسـول الله ملـتمسٌ ... غَـرْفًا مـن البحر أَو رَشْفًا مـن الدّيـمِ

(١) انظر: مصر، ص٦٧.
(٢) انظر: السابق، ص٣٥٢.

فإنـــه شمـــسُ فضـــلٍ هُـــمْ كواكـــبُها   يُظْهِـــرنَ أنوارَهـــا للـــناسِ في الظُّلَـــمِ[١]

ولم يكن ديوان شاعر مصري يخلو من مدحة أو مدائح نبوية كما يقرر شوقي ضيف[٢] الذي يشير إلى أنّ ازدهار المديح النبوي ارتبط بالحروب الصليبية، وما تبعها من هجوم لحملة الصليب على الإسلام وعلى الرسول ﷺ - جعل الشعراءَ العرب يتبارون في الردّ على أعداء الإسلام، وإبراز معالم السيرة العطرة للرسول ﷺ، واتخاذ جهاده قدوةً حسنةً وسبيلاً لبَثّ الحماسة في نفوس الذائدين عن حمى الإسلام من المجاهدين المسلمين ضد عدوان الصليبيين.

إن النزوعَ الديني مُمثّلا في ازدهار التيار الديني في الأدب المصري استمدَّ جذورَه من الإيمان العميق بالله، وحبّ رسوله ﷺ . ولم يكن إلا تعبيرًا عمّا تتسمُ به الشخصيةُ المصريّة من حبٍ راسخٍ للدين، واحترام مكين للعقيدة.

— ٥ —

لم يكن النزوعُ الديني العميق لدى المصريين مظهرًا من مظاهر المواجهة السلبية لقضايا الحياة ومسئولياتها الجسام؛ فقد استمدّوا القوة من استمساكهم بالدين الذي كان وازعًا لهم على الجهاد في سبيل الله، والذود عن الأرض والمقدسات. وقد أججت الحروبُ الصليبية وما صاحبها من انكسارات وانتصارات مشاعرَ الأدباء المصريين الذين واكبوا بقوةٍ وقائعَ هذه الحروب، وعبّروا أروع تعبير عن التلاحم بين الأدب والتاريخ في التراث المصري.

وقد أدت انتصاراتُ الجيوش العربية الإسلامية على الصليبيين في بعض المراحل التاريخية التي توّجها صلاح الدين الأيوبي بانتصاره العظيم في حطين إلى وجود تيار أدبي مصري يعتد بالقوة، ويتمسك بالعزة والكرامة، ويثق في نصر الله لجنوده المؤمنين، وخذلانه لأعدائهم ﴿لِيحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾.

وكان طبيعيًا أن يتغنّى الشعراءُ بهذا النصر المبين، مصوّرين صلاح الدين رمزًا للبطولة العربية. وقد

(١) راجع: مصر، ص ٣٦٢ - ٣٦٥.
(٢) انظر: السابق، ٣٥٢.

تناول عبد اللطيف حمزة هذا الأدب في كتابه: "أدب الحروب الصليبية" مؤكدًا خصوصية هذا الأدب، كما تناوله أحمد بدوي في كتابه: "الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام" مركزًا فيه على أثر الحروب الصليبية في إنتاج الشعر الحماسي الذي غلب على شعراء هذا العصر، كما تناوله محمد كامل حسين، وسمّاه "فن الشعور بالقومية الإسلامية".

وقد أثرت الحروبُ الصليبية ديوانَ الشعر المصري بقصائد حماسية رائعة، وسجّل الشعراء المصريون مشاعرَ الفرحة العارمة بنصر حطين المجيد بحروف من نور، فأوجدوا ديوانًا ضخمًا في الأدب العربي أُطلق عليه (القدسيات). وفي هذا السياق التقى ابنُ سناء الملك - الذي يراه شوقي ضيف بحقٍ أكبَر شاعر ظهر بمصر قبل العصرِ الحديث[1] - بأبي تمام، كما التقى صلاحُ الدين بالخليفة العباسي المعتصم، فتناص معه في بائيته الشهيرة:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ ... في حدّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ

ويخلّد ابنُ سناء الملك فتوحَ صلاح الدين في قصيدته البائية التي يقول فيها:

بدَوْلةِ التُّرْكِ عَزّت ملّةُ العربِ ... وبابنِ أيوبَ ذلّت شيعةُ الصُّلُبِ
ولابنِ أيوب دانت كلُّ مملكةٍ ... بالصّفحِ والصُّلحِ أو بالحَرْبِ والحَرَبِ

فيلتقي في ذلك مع تخليد أبي تمام للمعتصم في فتح عمورية.

ولابن سناء الملك في مدح صلاح الدين قصائدُ كثيرةٌ، منها قوله في إحداها:

لستُ أدري بأيِّ فتحٍ تهنّا ... يا مُنيلَ الإسلامِ ما قدْ تمنّى
لكَ مَدْحٌ فوقَ السماواتِ يُنشَا ... ومَحَلٌّ فوقَ الأسِنَّةِ يُبنَى[2]

---

(١) انظر: مصر، ص٢٠٦.

(٢) انظر: السابق، ٢٠٧-٢٠٨.

والقصيدةُ أنشودةُ فرحة بالنصر المبين في حطين، ومديح رائع لصلاح الدين في صور مبتكرة اتصف بها شعرُ ابنِ سناء الملك.

وقد تحول المدحُ في قصيدة المديح المصرية لصلاح الدين وفتحه لبيت المقدس، فأصبحت قصيدةَ أمجاد حربيّة مظفرة، لا قصيدة مناسبات تُنشد في الأعياد والاحتفالات الرسمية كما يرى شوقي ضيفٌ[1].

واستمرَّ الأمرُ كذلك في المراحل التاريخية التالية، مما يؤكد أصالة الأدب المصري في مواكبته للأحداث التاريخية العظيمة، وتصويره لأبطال النصر، مثلما تغنّى البهاءُ زهير بالنصر المجيد الذي حققه السلطانُ الكامل الأيوبي على الصليبيين بقوله:

بك اهتزَّ عِطفُ الدينِ في حُلَل النصْر وردَّت على أعقابها ملَّةُ الكفْرِ[2]

كذلك واكبَ الأدبُ العربي انتصارات الظاهر بيبرس الذي كان الشعراء ينثرون عليه قصائدهم في كلِّ معركة وكلِّ نصر مظفّر على التتار والصليبيين[3].

إنَّ التناولَ النقديَّ الثاقب لشوقي ضيف جعله لا يُسقط قصيدة المدح من فنّ الشعر العربي الأصيل عندما تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجّلها الشعراءُ، فيقرأ العربُ تاريخهم من خلالها في صورة رائعة من الغناء والشعر[4]، خاصةً إذا كان هذا الشعرُ صادرًا عن شاعر أصيل كابن سناء الملك، أو مَنْ هم مثله في صدق التعبير عن التحولات المصيرية الحاسمة في تاريخ مصر العربي الإسلامي.

---

(١) انظر: مصر، ص١٩٠.

(٢) انظر: السابق، ص١٩١.

(٣) انظر: السابق، ص١٩٢.

(٤) انظر: السابق، ص١٩٧.

وقد أبدع الشعراءُ المصريون في رثاء الدول والممالك؛ فرثوا زوالَ الدولة الطولونية وما حققته مصرُ في عصرها من مجد وقوة، وسجلت كتب التاريخ رثاءَ هؤلاء الشعراء لآثار الدولة الطولونية، كقصيدة سعيد القاص الطويلة التي احتفظ بها الكندي في كتابه "الولاة والقضاة"(١)، ومطلعها:

جَرى دمعُه مَا بين سحر إلى نَحْرِ ولم يجـر حتّى أَسْلمتْهُ يدُ الصَّبْرِ

فتسبق مصر الأندلس التي اشتهر شعراؤها بهذا اللون من الفن في رثاء سقوط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، ويرتدُّ الإبداع الأندلسي في رثاء الدول والممالك عودًا على بدء مصريّ أصيل أضاف إلى هذا الفن، كما أضاف إلى فنّ المديح وغيره، في حلقات من التجديد الأصيل الذي حفر في الوجدان العربي آثارَه بحروفٍ من نور.

-٦-

تقوم الشخصيةُ المصرية على عماد آخر إلى جانب العماد الديني، هو العماد الدنيوي؛ فالمصري يحبُّ الدنيا في موازاة لحبه للدين، وهو يحاول أن يتمتع بمباهج الحياة، فيقبل عليها محتفلاً بالحبّ والطبيعة، متسمًا بخفة الروح والميل إلى الفكاهة التي تصدر عنه بلا كلفةٍ فيتنفسها كالهواء، ويطلقها في تعبير مرح وثاب عذب عذوبة ماء النيل.

وقد انعكس ذلك في الأدب المصري الذي اتسم برقة الغزل وعذوبته متمثلاً في شعر ابن سناء الملك، وابن النبيه المصري، والبهاء زهير، وابن مطروح، وابن نباتة. . . وغيرهم من الشعراء الذين تجلّت في معانيهم وصورهم الشعرية الغزلية معاني السمو العاطفي.

وجاءت الأشعار الغزلية في الأدب المصري أشبه بمنظومة عاطفية رقيقة في الحُبّ تداخلت مع صور الحُبّ الإلهي كما قدّمه ابن الفارض، وتسامت في كثير من جوانبها عن شهوات الحس والغرائز. وتميّز الشعراء المصريون في الغزل الوجداني الصافي الذي أشاد بخصوصيته شوقي ضيف من خلال دراسةٍ مستفيضة لأهمّ أعلامه واتجاهاته.

(١) انظر: مصر، ص٢١٩-٢٢٠.

وقد تتبّع شوقي ضيف الشعر الغزلي لابن سناء الملك، ومَنْ بعده من الشعراء مقررًا أنّ الغزل الوجداني البديع قد تفجّر على كلِ لسان بعد ابن سناء، وأنّ من أهم أسباب ازدهاره الشعرَ الصوفي؛ "فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدًا ملتاعًا، وكان لذلك أصداؤه الواسعة في غزل الشعراء . . . يصوّرون حبّهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة، وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف"[١] .

يمثّل شوقي ضيف لغزل ابن سناء الملك الرقيق بقوله :

لا أُجَــازِي حبــيبي بِجُــرْمِه   أنــا أَحْــنَى علــيه مِــن قلْــبِ أمّــه

ويحلّل كثيرًا من شعره الغزلي الذي يصفه بأنه يموج بوجد لا حدودَ له ولا ضفاف[٢] .

كما يوضح شوقي ضيف الشخصيةَ المصرية المتمثّلة في شعر الغزل المصري عند ابن النبيه بقوله: "وإذا أخذنا نقرأ ديوانَ ابن النبيه أحْسَسْنَا بوضوحٍ أنه يمثّل في غزله الروحَ القاهرية المصرية بكل ما عُرِف عنها من الدماثة والرقة وخفة الظل، لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب، بل أيضًا في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سامٍ دون ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة، فحسبه أن يصوّرَ عاطفته إزاءها في رقة متناهية. وهيّأ ذلك قديمًا لغزله أن يكثر التغني به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن؛ لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه، وما زال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ومن ذلك قوله:

أَفْديــه إنْ حَفــظَ الهَــوى أو ضَــيَّعا   مَلَــكَ الفــؤادَ فمَــا عســى أَنْ أَصْــنعا
مَــنْ لم يَــذُقْ ظُلْــمَ الحبيــب كظُلْمــه   حُلْــوًا فقــد جَهِــلَ المحبّةَ وادَّعَــى
يَــا أيهــا الوجــهُ الجميــلُ تــداركِ الصَّــ   ـبَّ النحيــلَ فقــد وَهَــى وتضعْضــعَا
هَــلْ في فــؤادك رحمــةٌ لمتــيَّم   ضَــمَّتْ جوانحُــه فــؤادًا مُوجَعــا

(١) انظر: مصر، ص٢٦٦.
(٢) انظر: السابق، ص٢٦٤-٢٦٦.

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبُثَّ صَبَابتي أو أَشْتَكي بلواي أَوْ أَتضرَّعَا

. . . ولا تقل جمالاً وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية:

أمانًا أيها القمرُ المُطلُّ فمن جفنيك أسياف تُسَلُّ
يَزيدُ جمالُ وجهك كلَّ يومٍ ولي جَسَدٌ يَذوبُ ويضمحلُّ
وما عرف السقامُ طريقَ جسْمي ولكن دَلَّ مَنْ أهوى يدلُّ
إذا نُشرت ذوائبُه عليه تَرى ماءً يَرفُّ عليه ظِلُّ
وقَدْ يَهْدي صَباحُ الخَدِّ قومًا بلَيْلِ الشَّعْرِ قَدْ تاهُوا وضَلُّوا"[١]

ويتناول شوقي ضيف شعر الغزل المصري في منظومة تراءت صورًا من هذا الغزل الوجداني الملتاع عند ظافر الحداد، والمهذب بن الزبير، وابن سناء الملك، وتكاملت في صورة رائعة عند ابن النبيه[٢]. ويبيّن أنّ الغزل تقدّم خطوة نحو السهولة وقصر الأوزان والتغني بالحب في تدفق وانطلاق عند البهاء زهير الذي جري شعره الغزلي مترقرقًا متدفقًا خفيفًا رشيقًا: "ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السلس أثرٌ كبيرٌ في ذلك، فعلى نحو ما يمتدُّ الوادي في مصر سهلاً لا نتوء فيه، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات، وعلى نحو ما يجري النيل مترقرقًا متدفقًا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبًا سائغًا شرابُه. وكما أن الوادي ينطوي على السهولة كذلك النفس المصرية نفسٌ سهلة لطيفة لا خشونة فيها"[٣].

وينطبع شعر البهاء زهير بطابع الوجد الصوفي الفارضي في رائيته المشهورة:

غَيْري علَى السُّلوانِ قادرْ وسِوايَ في العُشَّاقِ غادرْ

---

(١) انظر: مصر، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢) انظر: السابق، ص٢٧٧.
(٣) انظر: السابق، ص٢٨١.

ويتّسمُ شعره - وأغلبه في الغزل - بالرقّة وكثرة ألفاظ اللغة اليومية الدارجة كثرةً جعلت غزله يمسُّ أوتارَ القلوب والأفئدة، كقوله:

مــــن الــــيَوْم تعارفـــنا ونطْــــوي مَـــا جـــرى مـــنا
ولا كـــــانَ ولا صــــــارَ ولا قلــــــتُم ولا قُلْــــــنَا
وإنْ كـــــان ولابـــــدَّ مــــن العتْــــب فبالحســــنى
فقـــد قـــيل لـــنا عـــنكم كمـــا قـــيل لكـــم عـــنا
ومـــا أحســـن أن نـــرجـ ــــع للوصــــل كمــــا كــــنا[١]

وقدّم الشعراء المصريون لغةً أدبية سهلة ابتعدت عن تقعرات الفصحى، واقتربت من لغة الحياة اليومية المصرية، فطوروا بتلك اللغة القريبة من حياة الناس أسلوبَ الشعر المصري، دون أن يُفرّطوا في فصاحة اللغة العربية التي امتلكوا ناصية التعبير بها تعبيرًا أصيلاً جميلاً. وظهر ذلك في شعر البهاء زهير وابن مطروح، وشعراء الحرف والفكاهة كأبي الحسين الجزار.. وغيرهم من الأدباء الذين أكّدوا هذه الشخصية المصرية الأدبية في عزوفها عن التصنع والتكلف والتعقيد في البناء الفني.

ومن أدلّ الفنون الأدبية على تلك الشخصية المصرية - من هذا الجانب - الغزلُ الذي فُتن به النقّادُ قديمًا وحديثًا، كما افتُتنَ ابنُ حجة الحموي بتميز ابن نباتة المصري في مطالعه الغزلية، حيث يقول في "خزانة الأدب": "والذي أقوله: إنَّ الشيخَ جمال الدين بن نباتة نباتُ هذا البستان، وقلادةُ هذا العقيان، ومن مطالعه التي هي أبهج من مطالع الشمس قوله في هذا الباب:

فِي الـرّيقِ سـكْرٌ وفِي الأصـداغِ تجْعـيدُ هـــذا المُـــدامُ وهاتـــيك العَناقـــيدُ

---

(١) انظر: مصر، ص٢٧٨-٢٨٦.

وقوله:

بَـــدا ورنـــت لواحظُـــه دلالاً فَمَـــا أبهـــى الغـــزالةَ والغـــزالا

وقوله:

ســـلبت عقـــلي بـــأحداق وأقـــداح يا ساجي الطرف بل يا ساقي الراح

إلى غير ذلك مما بدا في شعر هذا الشاعر من خصائص شعرية تدل على تفرُّد الأدب المصري من خلال شاعر من شعرائه الكبار في العصر المملوكي. وقد لُقّب بأمير شعراء المشرق، وأشاد به القدماء كالسبكي الذي رأى أنَّ شعرَه فاق شعر غيره، وأنه صار مثلاً فنيًا يُحتذى به. مثال ذلك أنَّ الشعراءَ حاولوا معارضة تائيته المدحية الشهيرة:

قضـــي ومـــا قُضـــيت مـــنكم لـــبُانات متـــيّمٌ عبثـــت فـــيه الصـــبابات

فلم يلحقوا به، فقَدْ كان حاملَ لواءِ الشعر في عصره، وكان نَبْعُ الشعر عنده فيّاضًا على حدّ تعبير شوقي ضيف[1]، وقد اطردت صفات الإبداع والتميز لأدب ابن نباتة في كتب التراجم، وعدّه عمر موسى باشا شاعرَ المشرق العربي كله بناء على ذلك.

-٧-

أثَّرت مصر تأثيرًا كبيرًا في تشكيل خيال شعرائها الذين صوّروا الطبيعة تصويرًا تجلّى فيه هذا التأثير لعبقرية مصر ـ المكان والحضارة ـ في نفوسهم. أثر النيل - خاصة - في خيال الشعراء الذين استلهموا من خلوده وجلاله وجماله صورًا رائعة عكسوا فيها ما تفاعل في حياتهم من تجارب إنسانية حافلة بالحب والجمال والمتعة على ضفافه الساحرة. وألهمت الطبيعةُ المصريةُ الشعراءَ خيالاً ابتكاريًا صاغوا به شعرَهم وقد مزجوا فيه بين تصوير الطبيعة وتصوير الغزل والخمر. وبرع ابن وكيع

(١) انظر: مصر، ص٢١٢.

التنيسي الذي سماه حسين نصار (شاعر الزهر والخمر) في تصوير الطبيعة تصويرًا دلّ على الشخصية المصرية.

وقد تناول شوقي ضيف هذا الشاعر بالدراسة مبيّنًا أنه عاش للطبيعة متمتّعًا بمباهجها[١].

أما الشريف العقيلي فقد عدّه شوقي ضيف امتدادًا لابن وكيع التنيسي في استغراقه في شعر الطبيعة والخمر والحب[٢]، وأشار إلى إبداعه في تجسيد الطبيعة في مناظر يتمثّل فيها التجميع والحشد والتركيز، ويكثر عنده التشخيصُ وبثُّ الحياة في عناصر الطبيعة[٣].

– ٨ –

وتميّز الأدب المصري بالاحتفال بالبديع الذي طغى على كافة الفنون الأدبية، وانساب في هذا الأدب صافيًا رقراقًا لا يشوبه التكلّفُ أو الثقل. وقد أشار شوقي ضيف إلى ذلك، وتناول أهمَّ أعلام البديعيات التي أصبحت المقياس الدقيق لإبداع الشعراء، كما قرّر أنَّ استخدام الشعراء المصريين للبديع "لم يسمج ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت إلى أيام العثمانيين، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوي عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجري بها مياه النيل في أرضهم بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه"[٤].

– ٩ –

تعدُّ الفكاهة دليلاً على أهمِّ سمات الشخصية المصرية التي عبّر عنها الأدبُ المصري الساخر، انعكاسًا لموقف يتّخذ من الفكاهة سلاحًا من أسلحة المقاومة للشدائد والأزمات التي تنهال على المصريين في عصورهم التاريخية المختلفة. وقد زخر الأدب المصري بالتورية المعبّرة عن روح الفكاهة والدعابة التي صدرت عن طبع أصيل ميّزَ الشخصيةَ المصريّةَ التي مزجت بين حُبِّ الدين وحُبِّ الدنيا، كما مزجت بين الجدّ والهزل، وأظهرُ مظاهر حبِّ الدنيا الفكاهةُ التي فاء المصريون إلى ظلها الظليل من هجير الدنيا؛ استجابة لإقبالهم على الحياة.

(١) انظر: مصر، ص٣٣٢–٣٣٥.
(٢) انظر: السابق، ص٣٣٦.
(٣) انظر: السابق، ص٣٣٧.
(٤) انظر: السابق، ص١٨٥.

وقد خصَّ شوقي ضيف الفكاهةَ في الأدب المصري بكتابين، تناول فيهما ارتباط الفكاهة بشخصية مصر الأدبية. واستعرض تطور الفكاهة في الشعر المصري مشيِّرا إلى تميزه في فن التورية[١]. وذكر منْ أعلامها: القاضي الفاضل، وابن سناء الملك، والجزار، والوراق، وابن النقيب، والحمامي، وابن دانيال، ومحيي الدين بن عبد الظاهر... وغيرهم.

ويُعَدُّ أبو الحسين الجزار من أشهر شعراء الحرف في الفكاهة، وقد كانت لغتُه سهلةً تميل إليها العامّةُ مع فصاحتِها، وكان ذا ملكة شعرية خصبة، وقدرة على النفاذ إلى قلوب عامة الشعب لأنه نشأ بينهم.

وتتجلى المفارقةُ الساخرة في الأدب المصري - كذلك - في شعر عامر الأنبوطي من شعراء العصر العثماني، وكان كلّما رأى قصيدةً مشهورةً سائرة قلّبها وزنًا وقافيةً إلى الهزل والطبيخ في شعر فكاهي يصوره نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو، استهلّها بقوله:

يقول عامرٌ هو الأنبوطي ... أحمد ربي لست بالقنوط
وأستعين الله في ألفية ... مقاصد الأكل بها محوية
فيها صنوف الأكل والمطاعم ... لذّتْ لكلِّ جائع وهائم
فإنها نفيسة والأكل عم ... مطاعم إلى سناها القلب أم
والأصل في الأخباز أن تُقَمّرا ... وجوّزوا التقديد إذ لا ضررا[٢]

ولاشكَّ أنَّ المفارقةَ في مثل هذا اللون من الشعر الفكاهي تثيرُ الاستغراقَ في الضحك.

كذلك خصَّ شوقي ضيف الشعرَ الشعبي بكتاب تناوله على مر العصور، وأشار إلى أنَّ الشعراء المصريين شعبيون بمعيار نشأتهم في بيئات شعبية؛ إذ لم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية، بل كانوا من أبناء الشعب[٣]. ومن أجل ذلك استطاع هؤلاء الشعراء أنْ

(١) انظر: مصر، ص٣٦٨.
(٢) انظر: السابق، ص٣٨٤- ٣٨٥.
(٣) انظر: السابق، ص٣٨٦.

يؤثروا في الناس باستخدام العامية، إضافةً إلى أنَّ براعة الأدباء المصريين في التورية كانت أثرًا من آثار تطويعهم لروح المرح والدعابة[١].

وتميّزت الفكاهةُ في الأدب المصري بحضور البديهة، وخفة الروح، وحدة الذكاء. وقد ربَطَ شوقي ضيف بين حُبّ المصريين لها وبين الشخصية المصرية؛ إذ يصدر أدب الفكاهة المصري من صميم الشعب، وينطق عن روحه ومزاجه[٢].

كذلك أثّر الشعرُ الشعبي المصري في الشعر الفصيح، وقد عدّد صفي الدين الحلي ما في شعر ابن سناء الملك من عامية تشبه لغة الأزجال والمواليا والقوما، والكان كان والدوبيت والبليق التي انتشرت في مصر، ووسمت لغة الشعر المصري بالسهولة التي اختص بها.

ولم يكن غريبًا أنْ تشيعَ الأزجال في الأدب المصري، وتصبح معرضًا من معارض الفكاهة التي كانت قريبة من نفوس العامة[٣]. وقد أشاد ابن سعيد ببعض الزجّالين المصريين وعلوّ شأوهم في هذا الفن الذي بلغوا به غاية لا تُدرك[٤]. وصوّرت الفنونُ الأدبيّةُ الشعبيّةُ العاميّةُ في التّراث المصري خفّةَ روح المصريين ورقتهم ولطفهم وظرفهم كما قال صفي الدين الحلي[٥]. ويعدُّ خلف الغباري أستاذَ فنّ الزجل، فعنه تلقّاه كثيرٌ من المصريين، وقد عاش في القرن الثامن الهجري، وكان فقيهًا وعالمًا وأديبًا وشاعرًا. أكسبَ أزجالَه روحًا مرحةً وحياةً بهيجة إضافة إلى عمق تجربته وخبرته بالحياة، وبراعة صوره وأخيلته البديعة. ولذا وصفه شوقي ضيف بأنّه إمامُ فنّه في زمنه غير مدافع[٦].

والضحك - فيما يرى فلاسفةُ الفكاهة - وسيلةُ تصحيح، و(النكتة) تدل على أنها نشاطٌ اجتماعي يفي بأغراض إنسانية تعيد التّوازن إلى الحياة، ولعل في هذا ما يفسّر مَيْل المصريين إلى الفكاهة التي تميزهم. وتمثُل النكتة التي برع فيها المصريون - خاصةً - عنصرًا من عناصر الشخصية المصرية التي تتخذ من الفكاهة فلسفة يعلو بها المصريون على مآسي الحياة، ويواجهون بها ما يعانونه

(١) انظر: محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي. الإسكندرية: منشأة المعارف، د.ت. ج٢/ ٩٣.
(٢) انظر: الفكاهة في مصر. القاهرة: دار المعارف، ط٣. د.ت. ص٧.
(٣) انظر: السابق، ص٦٣.
(٤) انظر: مصر، ص٣٨٧.
(٥) انظر: السابق، ص٣٨٨.
(٦) انظر: السابق، ص٣٩٥، وراجع: ص٣٩٣-٣٩٤.

من أسىً ومرارة بنقد ساخر يستبدل قبح الحياة بجمالها، وواقعها المؤسي بمثالها السار، وعبوسها اليائس ببسمتها الآملة.

وقد اشتهر ابنُ دانيال بتأليف ثلاث مسرحيات هزلية صورت الحياةَ الاجتماعيةَ والثقافيةَ في العصر المملوكي، فأبرز فن خيال الظل، وهو المسرح الشعبي القديم، وكان أدبُه دليلاً على براعة الأدباء المصريين في التورية. أما ابنُ سودون فهو أحدُ أعلام الفكاهة، وقد شُغف الناسُ بأدبه الفكاهي الساخر. والسخرية - فيما يرى شوقي ضيف - أرقى أنواع الفكاهة[1].

ويُعَدُّ ديوانُ ابن سودون "نزهة النفوس ومضحك العبوس" صورةً نادرةً لمذاهب الضحك والفكاهة التي خلدها الأدب المصري.

يقومُ أدبُ ابن سودون على المفارقة المنطقية مصورة في تباله وغفلة تثير الضحك، وتُنسي الإنسان مقامة حياته؛ إذ يخرج ابن سودون من هذا العالم المنطقي ليقف فيه موقفاً يبدو جاداً حتى إذا مضى في تصويره تبيّن أنه هزل خالص وخروجٌ عن المنطق المألوف؛ إذ الجادُّ الذي يوهم به لا يلبث أن يكون شيئاً مسرفاً في البداهة فلا تبلث أن تضحك في غير نظام. يتضح ذلك - مثلاً - في قوله:

عجب عجب هذا عجب ... بقرا تمشي ولها ذنب
ولها في بزها لبن ... يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر يرى الـ ... كرم يرى فيه العنب
والنخل يُرى فيه بلح ... أيضاً ويرى فيه رطب
والمركب مع ما قد وسقت ... في البحر بحبل تنسحب
والناقة لا منقار لها ... والوزة ليس لها قتب[2]

(١) انظر: الفكاهة في مصر، ص١٠.

(٢) انظر: السابق، ص ٨٣، ٨٤، ٩٧ ؛ مصر: ص٣٩٦-٣٩٩.

والتورية من أهمّ الظواهر الفنية في الأدب المصري، وقد جسّدت روح الفكاهة والسخرية انعكاسًا لعشق المصريين للتمويه بالألفاظ والتلاعب بها على مستويات كثيرة أهمها (القفشة) كما تُعرف في العامية المصرية. وهي علامةٌ على أصالة الأدب المصري في أعذب جمالياته التعبيرية، التي تعبر عن شخصيته الخاصة، وقد أشاد الصفدي ببراعة الشعراء المصريين فيها، فقد "شربوا ماء النيل، وهو أحد أنهار الجنة، وترشّفوا منه حلاوةً لا تكون في حشا القطر مستجنة. . . ومن عذبت قطراتُ مياههم لطفت كلمات شفاههم، وإذا كانوا قد نشأوا في حلية الحلاوة، ثنوا في المحاورة طلية الطلاوة كما قال فيهم المغربي علي بن سعيد، وما هو منهم ببعيد :

أَيَا سَاكِني مصر غَدَا النيلُ جَارَكُمْ فَأَكْسَبَكُمْ تلك الحَلاوةَ في الشِّعْرِ
وكَانَ بِتلك الأرضِ سِحْرٌ ومَا بَقِي سِوَى أَثرٍ يبدو على النَّظْمِ والنَّثْرِ"[1]

وهو ما أكّده شوقي ضيف في دراساته المستفيضة لخصائص الأدب المصري.

-١١-

أتمّ شوقي ضيف كتابه عن مصر في عصر الدول والإمارات ـ بدراسات تناولت تطوّرَ النثر الفنّي واتجاهات أعلامه في الأدب المصري، وأشار إلى ازدهار الكتابة الديوانية في العصر الفاطمي لعظم وسلطان الدولة الفاطمية، وقد قام عليها أشهر الكتّاب البلغاء - كابن الصيرفي - حتى بلغت ذروتها عند القاضي الفاضل في العصر الأيوبي، والذي تولى ديوانَ الإنشاء لصلاح الدين، ومثّل الثمرةَ النهائية لرقي الكتابة الديوانية في صورتها الفنية التي تُعنى بالبديع، خاصة السجع والتورية[2].

وقد استمرَّ هذا اللون من الكتابة في العصر المملوكي على يد أهم كتّابه وهو محيي الدين بن عبد الظاهر رئيس ديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس. واختار شوقي ضيف من أدب القاضي الفاضل ما يدل على خصائص الكتابة الديوانية، وهي كما يقول: "كتابة فيها روح مصر. . . ليس

(١) انظر: فض الختام عن التورية والاستخدام، تحقيق: المحمدي عبد العزيز الحناوي. القاهرة: دار الطباعة المحمدية بالأزهر، ط١. ١٩٧٩. ص١٣٩-١٤١.

(٢) انظر: مصر، ٤٠٤.

فيها ثقلٌ ولا تكلّفٌ بعيد، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير"[١]. ومثّل شوقي ضيف لفنّ القاضي الفاضل في الصور الأدبية من استعارة وتشبيه، والبديع من جناس وطباق، والأسلوب الذي يؤثر في النفوس قوله في صلاح الدين وأسرته:

"أنتم - يا بني أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال، كما أن سيوفكم آفةُ أنفس الأبطال، ولو ملكتُم الدهرَ لامتطيتم لياليه أداهم، وقلدتم بيض أيامه صوارم، وأفنيتم شموسَه وأقمارَه في الهبات دنانير ودراهم، وأوقاتُكم أعراسٌ إلا على الأموال فهي مآتم، والجود في أيديكم خاتم، ونَفَسُ حاتم في نقش ذلك الخاتم"[٢].

ويشيد شوقي ضيف ببراعة الأدباء المصريين في الاقتباس من القرآن الكريم، ولاشكَّ أنَّ القرآن الكريم قد أُلهمَ الأدباء الذين رفدوا من معينه العذب صورًا ومعاني حفل بها الأدبُ المصري الذي كان الاستلهامُ من القرآن الكريم من أهمّ ظواهره الفنية.

وقد نجح الأدباءُ المصريّون في توظيف التّناص بالقرآن الكريم في تحقيق غاياتهم الفنية، فجعلوا أسلوب القرآن الكريم أسلوبًا أمثل للغة العربية، واتخذوا صورَه وأساليبَه نماذج سعوا إلى تشكيلها في صياغتهم الأدبية ليكسبوها رونقًا وجمالاً.

ويدلّلُ شوقي ضيف على براعة التّناص بالقرآن الكريم في أدب محيي الدين بن عبد الظاهر في رسالة في البشرى بوفاء النيل، يقول فيها: "نِعَمُ الله وإن كانت متعددة، ومنحه وإن غدت بالبركات مترددة، ومنّتُه وإن أصبحت إلى القلوب متودّدة، فإنّ أشملَها وأكملَها، وأجملَها وأفضلَها، وأجزلَها وأنهلَها، وأتمَّها وأعمَّها، وأضمَّها، وأَلَمَّها ـ نِعْمةٌ أجزأت المن والمنح، وأنزلت في برك سفح المقطم أغزر سفح، وأتت بما يعجب الزُرّاع، ويعجز البرق اللمّاع، ويعل القطاع، ويغل الأقطاع، ويأتي في الغد بأكثر من اليوم وفي اليوم بأكثر من الأمس، ويركب الطريق مجدًّا؛ فإن ظهرت بوجهه حمرة فهي ما يعرض للمسافر من حرّ الشمس".

---

(١) انظر: مصر، ص٤٠٤.

(٢) انظر: السابق، نفسه.

إلى آخر هذه الرسالة الرائعة التي اقتبس فيها من سورة الفتح قوله تعالى: ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ . . ﴾، وقد اشتهر بكثرة اقتباسه من القرآن الكريم، وقد بيّن شوقي ضيف ما في رسائله - أيضًا - من براعة في فنون التورية، وعذوبة في السجع، لم يَحُل دون التدفق والوضوح في التعبير، مما يدل على ملكته الأدبية الخصبة[١] .

أما الرسائل الشخصية - وهي الأقربُ إلى روح كُتّابها - فقد خصّها شوقي ضيف بدراسة بيّن فيها براعةَ الأدباء المصريين في تدبيجها حتى تبلغ بالمتلقي المبلغَ المنشود .

ومن أهمّ أعلامها في العصر الفاطمي ابن أبي الشخباء الذي اشتهر بالرسائل الإخوانية البديعة، من ذلك قوله في رسالة استعطاف: "المودّات إذا كانت متينة العقود، صادقة المشهود، موضوعة على أصلٍ عريق، وأساس وثيق، لم تخترقها الشبهة المرمضة، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة" . وقد عدّه شوقي ضيف أبرعَ كاتبٍ قاهري في القرن الخامس الهجري[٢] .

ويُوردُ شوقي ضيف رسالةً جميلةً يقرّظ فيها برهانُ الدين القيراطي أدبَ أستاذه ابن نباتة بقوله: "لا غَرْوَ أَنْ فَضَحَ بديعَ الزمان بلفظه البديع، وأزهرت الأوراقُ بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا، وأعلى همَمَه التي لا ترضى الشُّهبَ جيادًا، والأهلّة سروجًا"[٣] .

وقد تتبّعَ شوقي ضيف ألوانًا من هذه الرسائل، موضّحًا ما تتّسمُ به من رشاقةٍ في الأسلوب البديعي عند ابن مماتى وابن مكانس[٤] .

كذلك استأثرت المقامةُ بجانب عظيم من النثر المصري. وقد عرض شوقي ضيف لمقامة وردت في آخر ديوان ظافر الحداد تحفل بالسجع الخفيف، الذي يكاد يطير عن الأفواه طيرانًا بعذوبته وقصره وحُسْنِ اختياره للفظه، ومنها قوله:

---

(١) انظر: مصر، ص٤١٦-٤١٩ .
(٢) انظر: السابق، ص٤٣١ .
(٣) انظر: السابق، ص٤٢٧-٤٢٨ .
(٤) انظر: السابق، ص٤٣٣-٤٤١ .

"أصبحتُ ذات يومٍ في منزلي، وقد كَلَّ جناني وبناني ولساني وإنساني من الدأب في الطلب، والإكباب على الكتاب، ومتابعة المراجعة في النسخ، والمطالعة بين معنى أحكمه، أو لفظ أنظمه، أو خط أرقمه. فتاقت النفسُ على الإحماض بمفاكهة أديب، والارتياض بمذاكرة أريب. . . وإذا الغلام قد دَخَل وأَسْرعَ، وقال: البابُ يُقرع، فقلت: ما الشان؟ فقال: جماعة من الإخوان، منهم فلان وفلان، فذكر لي كلِ صديق صدوق، ورفيق رفيق، وشفيق شفيق، وقد اختلفت بينهم الموارد، واتفقت منهم المقاصد، فكانوا كسهام النبع، إذا سددها النزع. . . ".

وتدل هذه المقامة على بروز السجع عنصرًا فنيًا أصيلاً للمقامة ذات الطابع القصصي، فبينما الأديب في غمرة الفرح والأنس بالأصدقاء، يتمتع معهم بنظم عقود المذاكرة بمعاني الأبيات المبتكرة، إذا بالغلام يخبره بأنه ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق. وفي غمرة هذا الموقف المتأزم يجيء الفرج، وتأتي هديّة من طعام فاخر شهي أقبل عليه الضيوف مستمتعين بما صاحبه من حديث أعذب من ضمّ الخلس، ولثم النفس[1].

ويُعَدُّ القلقشندي ممثلاً لخصائص المقامة المصرية، وتُعَدُّ مقامتُه "الكواكب الدرية في المناقب البدرية" الأساسَ الذي بنى عليه موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا". وقد وصف القلقشندي في هذه المقامة فنَّ الكتابة الإنشائية، وقرَّظ به رئيس ديوانها - في عصره - بدرَ الدين العمري.

ويُعَدُّ هذا الأدب المقامي للقلقشندي ذروةً رفيعةً لهذا الفنّ الذي تجلى فيه حسن الجرس في انتخاب ألفاظه، وقوافي أسجاعه، وترصيع جناسه وطباقه، وطلاوة توريته، وسلاسة بديعه[2].

وقد تناول شوقي ضيف مقامات السيوطي[3] ودلالتها على أهمّ معالم الشخصية المصرية.

وفي إكمال لصورة النثر الفني المصري يتناول شوقي ضيف المواعظ والابتهالات التي زخر بها الأدبُ المصري فيّاضاً في تعبيره عن المواجد الإيمانية العميقة التي حفل بها الشعر المصري.

(١) انظر: مصر، ص٤٤٢-٤٤٣؛ وكتابي : مقامات السيوطي، ص٢٨٩-٢٩١.
(٢) انظر: السابق، ص٤٥٢-٤٥٣؛ وكتابي: مقامات السيوطي، ص٢٩٢-٢٩٣.
(٣) انظر: مصر، ص٤٥٥-٤٥٨.

وقد اشتهر ابنُ دقيق العبد بالوعظ في خطبه التي كان يتدفق فيها كالنيل العذب[١]، كما اشتهر مشايخُ الطرق الصوفيّة بأورادهم، كإبراهيم الدسوقي والسيد البدوي وأبي العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري والشعراني، وتُعَدُّ أورادُهم وأذكارهم آيةً في البلاغة والبيان، وسموِّ الروحِ والمناجاة والإيمان[٢].

وعَرَضَ شوقي ضيف - أخيرًا - لكتب النوادر؛ سواء ما يتّصلُ منها بالقصص القصيرة التي تروّحُ عن النفس ويقصد بها إلى غرض خلقي نبيل، مثل كتاب "المكافأة" لابن الداية، أو التي تصوّرُ الفكاهة والسخرية، مثل كتاب "أخبار سيبويه المصري" لابن زولاق، و"الفاشوش في حكم قراقوش" لابن مماتي، و"هزّ القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف" للشيخ يوسف الشربيني. وكتاب "المكافأة" هذا يَضُمُّ في قسمه الأوّل إحدى وثلاثين نادرةً تدورُ حول مكافأة الجميل بالجميل، ويضُمُّ الثاني إحدى وعشرين نادرةً لمكافأة القبيح بالقبيح، ويضم الثالث تسْعَ عشَرةَ نادرةً تمثّل حسنَ العُقبى. والكتابُ دعوةٌ حارّةٌ إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة، وقد صَاغها ابنُ الداية بلُغَة الحياة اليومية المصرية في عصره (الطولوني)، مما يدل على لغة وتاريخ مصر في هذه المرحلة التاريخية المبكرة[٣].

أمّا "أخبارُ سيبويه المصري" فيسوق فيه ابن زولاق مشاهدَ مختلفةً لنقد سيبويه للحكّام وللناس في عصره، ممزوجًا بشيء من التّباله[٤].

وأما ابن مماتي فقد أورد نوادرَ شعبيّةً مضحكةً تُصوّرُ شخصيّةَ قراقوش في صورة الأحمق، على عكس شخصيّته التاريخية الهامة في تاريخ مصر زمَنَ الحروبِ الصليبية، وقد كان قائدًا من قوّاد صلاح الدين، اشتهر بشدّته في بناء القلاع والحصون التي سخر المصريين في تشييدها، فاتخذوه مثلاً للتحكّمِ والسخرة، وانتقم لهم ابنُ مماتى بهذا الكتاب الذي وضعه عليه[٥]. أمّا "هزّ القحوف" فقد

(١) انظر: مصر، ص٤٦٣.

(٢) راجع: السابق، ص٤٦٠-٤٧٧.

(٣) انظر: السابق، ص٤٧٨.

(٤) انظر: السابق، ص٤٧٩.

(٥) انظر: السابق، ص٤٨٠-٤٨١.

صوّرَ الأوضاعَ السيّئةَ للفلاحِ المصري وما يُعَاني من جهلٍ وفقرٍ ومرضٍ في العصر العثماني، في لهجة مصريّة ممعنة في العبث والمجون، ساخرةً مِن أسمائهم ولهجتهم، ويعرض لنوادرهم التي صوّرها الشربيني بأسلوب مصري فَكِهٍ مَرِحٍ[١].

أما السِّيَرُ والقصص الشعبية فقد تمثّلت في الأدب المصري الذي احتفل بكتابة السيرة النبوية وقصص الأنبياء. كما أُلفت بمصر - أو أخذت شكلَها النهائي - بعضُ السير والقصص الشعبية، كسيرة عنترة، والسيرة الهلالية، وقد تعلق بها الشعب المصري، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف ابن ذي يزن، وهي قصة شعبية مصرية طويلة، وألف ليلة وليلة، وقد انتشرت بلغتها العامية المصرية في جميع بلدان العالم العربي. كما انتشرت القصص الشعبية: عنترة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف ابن ذي يزن بالعامية المصرية؛ مما جعل شوقي ضيف يؤكد أن كثيرين يظنون أن تَعَرُّفَ تلك البلدان على عاميتنا حديثٌ بسبب الإذاعة والسينما والتليفزيون، بينما السببُ في التعرّف على عاميتنا وتراثنا المصري قديم بسبب هذا النتاج الأدبي المصري الحافل على مر العصور.

-١٢-

إنَّ شوقي ضيف بغزارة علمه، وموسوعية مؤلفاته، ووضوح عبارته وإشراقها، وعطائه العلمي الخصب، وأثره العلمي العظيم في تلاميذه، وتواضعه الجمّ - سليلُ العلماء والأدباء المصريين الأصلاء الذين عَقَدَ لنتاجهم العلمي والأدبي دراساتٍ قيّمةً في كتابه "مصر" بيّنتْ إسهامَهم المتميّز في بناء الثقافة العربية، وعطاء الحضارة الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني الهجري، وقد أصبحت مصر من *مراكز العلم في العالم الإسلامي*[٢].

و ازدهرت بها العلومُ والفنون منذ العصر الطولوني، مرورًا بالعصور التالية، وقصدها العلماءُ كالمسعودي المؤرخ المشهور، ومن مصر ذاعت كتبُه وفي مقدمتها "مروج الذهب". وكانت (دار العلم) جامعةً كبرى بيّن المقريزي أثرَها في ازدهار الحركة العلمية بمصر[٣].

---

(١) انظر: مصر، ص٤٨٢.
(٢) انظر: السابق، ص٧٣.
(٣) انظر: السابق، ص٧٦.

وقد ازدهرت الدراساتُ الدينيّة بمصر - خاصة في العصر الأيوبي - واهتمّ صلاحُ الدين برعاية النشاط العلمي الذي ماج به هذا العصر، كما اهتمّ ببناء المدارس. وتنامى الاهتمامُ بالعلم في مصر إلى درجة جعلت ابنَ بطوطة الذي زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦هـ في عهد الناصر بن قلاوون - يذكر أنّ المدارسَ بمصر لا يحيطُ أحدٌ بحصرها لكثرتها[١].

ولاقى العلماءُ والأدباء إجلالاً من الدولة في مصر في عصورها المختلفة، خاصة علماء الدين، مما أدّى إلى نشاط الحركة العلمية، خاصة في العصر المملوكي الذي بُنيت فيه المدارسُ العظيمة، كالمدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس، والمدرسة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون. وكانت هذه المدارسُ جامعات عظيمةً في الدراسات الدينية والدنيوية، و أُلحقت بها المستشفياتُ كالمارستان المنصوري الذي عكس - بكليّة الطبّ التي كانت ملحقةً به - التقدّمَ العلمي للطب في العصر المملوكي[٢].

وعمل ابنُ النفيس مكتشفُ الدورة الدموية بهذا المارستان الذي كان شبيهًا بمارستان القاهرة الذي أنشأه صلاح الدين، وكان أكبرَ معهدٍ لتدريس الطب، وتخرّج فيه ابن أبي أصيبعة صاحبُ كتاب "طبقات الأطباء"[٣].

وكان لانتشار المدارس والمكتبات في مصر دورٌ كبيرٌ في النهوض العلمي، وازدهار حركة التأليف، وأدّى تشجيع العلماء إلى هذا الازدهار.

وأُلفت في مصر الموسوعاتُ التاريخية العظيمة كـ"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"خطط المقريزي و"سلوكه"، و"الضوء اللامع" للسخاوي، و"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي، و"بدائع الزهور" لابن إياس، إضافة إلى موسوعة النويري "نهاية الأرب"... وغيرها من المصادر الهامة في المكتبة العربية.

وألّفَ ابنُ فضل الله العمري موسوعته الجغرافية الرائدة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار".

---

(١) انظر: مصر، ص٨٣-٨٤.

(٢) انظر: السابق، ص١٠٠-١٠١.

(٣) انظر: السابق، ص١٠٠-١٠٢.

وكانت هذه الموسوعات العظيمة التي أُلفت في مصر تتويجًا لمؤلفات قيّمة في علوم اللغة والنحو، ومن أعلامها في العصر الطولوني عالمٌ مصري ولغوي ونحوي كبيرٌ هو ولاد التميمي. ومن الأئمة المشهورين في علم النحو واللغة أبو جعفر النحاس. وقد تُوّجت هذه الحركةُ العلميّةُ اللغوية بتأليف ابن منظور لمعجم "لسان العرب"، وهو أكبر معجم لغوي عربي[١].

ويُعَدُّ ابنُ هشام أكبرَ نحوي أنجبتْه مصر، وفيه يقول ابن خلدون: "ووصل إلينا بالمغرب ديوانٌ من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة... فوقفنا منه على علمٍ جَمٍ يشهدُ بعلوّ قدره في هذه الصناعة"[٢].

ويُعَدُّ كتابُ جلال الدين السيوطي "المزهر في علوم اللغة" من أنفس كتُب اللغة، وقد عَدّه شوقي ضيف من أَجَلّ المصنَّفَات اللغوية في التراث العربي على الإطلاق[٣].

كذلك ازدهرت بمصر علومُ القراءات، وكان لمصر شهرتُها في هذا العلم منذ منتصف القرن الثاني الهجري على يد ورش الذي وُلدَ بمصر سنة ١١٦هـ. وازدهر تفسير القرآن بمصر أيضًا، وللسيوطي تفسيرٌ كبير يُسمّى "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" إلى جانب تفسير "الجلالين"، وهو أشهرُ تفسير للقرآن الكريم إلى اليوم. ومن أهمِّ مؤلَّفَاته في علوم القرآن "الإتقان في علوم القرآن"، وهو مصدرٌ أصيلٌ في هذا الباب.

أمّا علْمُ الحديث فمنْ أهمّ علمائه الحافظُ ابن حجرٍ العسقلاني، والسيوطي وكتابه "جمع الجوامع" دائرة معارف كبرى في الحديث مع رواياته وأسانيده، هذا إلى جانب شروحه على "موطأ مالك"، و"صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم"، و"سنن أبي دواد" وابن ماجه... إلى شروح أخرى كثيرة. ومن حُفّاظ الحديث - أيضًا - الطحاوي، وابن دقيق العيد، وتقي الدين السبكي[٤].

(١) راجع: مصر، ص١٠٨ـ ١١٤.

(٢) انظر: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي. القاهرة: لجنة البيان العربي، ط١. ١٩٦٢. ج٤/ ١٢٥٧ـ١٢٥٨.

(٣) انظر: مصر ١١٤-١١٥.

(٤) انظر: السابق، ص١٣٥.

أمّا الفقه فقد حملت مصر مذهبَ الشافعي الفقهي الذي اكتمل فيها، ومنها حمله تلاميذُه من أبنائها، ونشروه في العالم الإسلامي[١]. وكان الليثُ بن سعد (ت ١٧٥هـ) إمامَ المذهب المالكي في مصر، وهو فقيهٌ مصري كبيرٌ عاصَرَ الإمامَ مالك[٢].

أمّا علومُ البلاغة والنقد فقد برز فيها ابنُ ظافر الأزدي صاحب كتاب "غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات"، وقد تناول فيه فنَّ التشبيه وأعلامه في مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس[٣]. ويُعَدُّ ابنُ أبي الإصبع بكتابَيْه: "بديع القرآن" و"تحرير التحبير" أكبرَ بلاغيٍ مصريٍ في مصر[٤].

وكان للنقّاد المصريين نظريّةٌ لنقد الشعر، مثّلهم - قبل ابن أبي الإصبع - ابنُ وكيع التنيسي الشاعر في كتابه "المنصف في نقد الشعر"، والعميدي في "الإبانة". وكان المتنبي قد شغل النقّادَ المصريين الذين نقدوا شعره، وكشفوا من خلال هذا النقد عن مفهومهم للشعر، كما بدا عند ابن وكيع والعميدي.

ويُعَدُّ إنجازُ ابن أبي الإصبع في تنظير البديع أساسًا نقديًا ناقش فيه أصالة العمل الأدبي، وتناول أهمَّ قضاياه البلاغية والنقدية في سياق متفرّد ميّزَ المدرسةَ المصريّة في البلاغة والنقد. وقد عبّرَ عن ذلك السبكي في "عروس الأفراح" بقوله: "أمّا أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك [يعني: التعقيد في البلاغة] بما طبعهم اللهُ تعالى عليه من الذوق السليم، والفهم المستقيم... أكسبهم النيل تلك الحلاوة... فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء، فضلاً عن الأغمار الأعمار، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجبَ من الأسرار خلف الأستار".

وكان إنجازُ المصريين في البديع ونقد الشعر بمنظوره دليلاً على تميّز النقد المصري بطابع أدبي؛ إذ كان أغلبُ النقّاد أدباءَ وشعراء، وكان اهتمامُهم بالبديع وابتكارهم فيه على مستوى النقد والإبداع دليلاً على طابعهم المصري الذي ميّزَ الشخصية المصرية، وحدا بالذوق المصري إلى حُبّ البديع

(١) انظر: مصر، ص١٤٣-١٤٤.
(٢) انظر: السابق، ص١٣٨-١٣٩.
(٣) انظر: السابق، ص١٢١.
(٤) انظر: السابق، ص١٢٢.

والتورية والسخرية، وإلى عناية النقاد بدراسة بلاغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وقد صدر السيوطي عن هذا الذوق المصري الخاص فذكر أنه برع في المعاني والبيان والبديع على طريقة البلغاء والعرب، وليس على طريقة الفلاسفة والعجم[١]؛ مما يفسّر قيامَ البلاغة والنقد في مصر على أساس ثقافة موسوعية عمادُها علومُ العربية والعلوم الدينية.

عن هذا التراث الزاخر صَدَرَ شوقي ضيف في أعماله العلمية، وقد رحل عن دنيا الناس ففقدنا برحيله عالمًا جليلاً، وأستاذًا أصيلاً، وفارسًا نبيلاً تعلّمْنا على يديه قِيَمَ العِلْم في عطائه الإنساني الرحب، وروحه الأخلاقي الخصب، وسعيه الدائب نحو الحقيقة منزّهةً عن الهوى، متجرّدةً لوجه الله الحق.

لقد أتصوّرُ أنّ شوقي ضيف لم يكتب في رحلة حياته العلميّة الحافلة بتأليف الموسوعَات الأدبيّة والكُتُب العلميّة العَظيمة - إلا مَا آمَنَ بصوابِه: علميًا وإنسانيًا، وكان في تحرّيه للدقّة العلميّة يَشْعرُ في أعماق نفسه الطاهرة بمسئولية الكلمة، وتبعات الرأي، وأثر العلم الباقي بعد فناء صاحبه، فلم يخادع ولم يصانع. وأقام صرحَه العلمي الرفيعَ على أساس مكين من الزاد المعرفي الواسع، والخُلُق العلمي الناصح، وتقوى الله فيما يكتب، وكأنه يحقّق قولَ الشاعر الذي ينشد في المؤلف أخلاقَ العلماء الأصلاء الذين يخشون الله، مخاطبًا بقوله:

فلا تكتب بخطك غيرَ شيءٍ   يَسُرُّكَ في القيامة أنْ تَرَاهُ

كان شوقي ضيف من طراز العلماء الذين أدّبهم علمُهم، رقيقَ الحاشية، دَمِثَ الأخلاق، عَذْبَ الابتسامة، رفيقًا بتلاميذه، هادئًا في اختلافه المنهجي والموضوعي مع مخالفه في الرأي، مثلاً يُقْتَدى في طلب العلم إلى آخر لحظة من حياته، رمزًا نادرًا للعلماء في عطائهم وبقائهم.

أنصفَ شوقي ضيف أعْلامَ الأدَب العربي والمصري عندما تعرّضُوا للنقد العنيف من قِبَل بعض كبار الكتّاب. لم تَمنعْهُ تلمذتُه لعميد الأدب العربي طه حسين أن يكتبَ عن المتنبي شاعر العربيّة العظيم، مُنصفًا إياه، ومختلفًا - في هدوء وعقلانية - مع أستاذه طه حسين في كتابه عن المتنبي،

(١) انظر: حسن المحاضرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ط١. ١٩٦٧. ج١/٢٢١-٢٢٢.

راجعه - كذلك - في قضية انتحال الشعر الجاهلي؛ بإثباته أشعارًا صحيحةً كفيلةً بأنْ تُتيحَ لنا الصورةَ الأدبيّةَ الوثيقة للعصر الجاهلي.

أخيرًا، فسّر شوقي ضيف القرآنَ الكريم تفسيرًا تجلى فيه هذا الروح العربي الإسلامي الأصيل في شخصه - رحمه الله - فقدّمَ في هذا التفسير خُلاصةَ تجربته العلميّة الواسعة التي استخدمها ـ كذلك ـ في بيان مدنيّة الإسلام، والدفاعِ عن حضارته العظيمة في هذه المرحلة التاريخية التي تتعرّضُ فيها هذه الحضارة العربية الإسلامية لأعنف الهجوم، وأقسى الاتهامات من الشرق والغرب.

رَحِمَ اللهُ شوقي ضيف، وأسْكَنَهُ فَسِيحَ جنّاته.